ونستطيع أن نفهم من النّداء اللّطيف للقوم فى القول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ قال يا قوم ﴾ الخلق العظيم الّذى فطر الله سبحانه وتعالى عليه أولئك النّبيّين الأطهار والحرص الكبير على أن يتقبّل القوم الدّعوة إلى الله تعالى . إنّ مثل هذه الطّريقة فى النّداء من الأدلّة العمليّة على وجوب الدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، لأنّ المخاطبين هم قوم المنادى الّذى ينبغى أن يريد لهم كلّ الخير، خاصّةً وأنّ كلّ النّبيّين والمرسلين يختارهم جلّ وعلا ويربّيهم على عينه ورعايته .

وحينما ننظر إلى فحوى دعوة نوحٍ عليه السّلام فى القول : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ نتبيّن أنّ فحوى دعوة كلّ النّبيّين والمرسلين واحد هو توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة .

وإذا كان الشّقّ الأوّل من الدّعوة متعلّقًا بالبداية ، أعنى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فإنّ الشّقّ الآخر من الدّعوة متعلّقٌ بالنّهاية ، أعنى باليوم الآخر . وإنّ البداية حينما تكون صحيحةً تكون النّهاية بإذن الله تعالى صحيحة ، فثمرة العبادة الصّحيحة لله تعالى النّتيجة الصّحيحة المتمثّلة فى جنّات النّعيم . ولمّا كان نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه المشركين مع الله تعالى فى العبادة سواه ، بمعنى أنّ بداية القوم ، أعنى العبادة ، غير صحيحة ، فمن الطّبيعيّ أن يخاف نوحٌ عليه الصّلاة والسّلام عذاب يوم القيامة العظيم المجموع له النّاس المشهود : ﴿ إنّى أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ وانظر إلى جملة : ﴿ أخاف ﴾ الّتى تومئ إلى إشفاق نوحٍ عليه السّلام على قومه إلى درجة الخوف عليهم من عذاب يوم القيامة إنْ هم لم يهجروا الشّرك ويعتنقوا التّوحيد .

وفى مقابل خلق نوحٍ عليه السّلام العظيم وإشفاقه الكبير على قومه لننظر إلى سوء أدب الملأ من قومه كما يبدو من جوابهم وذلك فى .

الآيـــة رقـــم (٦٠)

قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك فى ضلالٍ مبين ﴾ .

جريًا على عادة المترفين فى كلّ أمّة من عدم الاستجابة لدعوة رسول الله تعالى إليهم كان موقف الملأ من قوم نوحٍ عليه السّلام ووجوه المجتمع هو الرّفض لدعوة نوحٍ عليه السّلام قومه إلى أفراد الله تعالى بالعبادة . إنّ الملأ من قوم نوحٍ عليه السّلام ورؤساء القوم قالوا لنوحٍ عليه السّلام فى أسلوبهم الفظّ : إنّا لنراك يا نوح فى ضلالٍ مبين حينما تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام وإفراد الله تعالى بالعبادة . وإذا كان الضّلال ترك الطّريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا ، قليلاً كان أو كثيراً ، صحّ أن يُستَعمل لفظ الضّلال ممّن يكون منه خطأٌ مّا(١) مهمًا يكن حجم الخطأ أو نوعه فى الحقيقة أو التّقدير . إنّ الملأ الكافرين من قوم نوحٍ عليه السّلام يرون دعوته عليه السّلام إلى التّوحيد ضلالاً مبينًا وخروجاً عن الصّراط المستقيم خطيرًا . وما هو الصّواب والصّراط المستقيم فى نظر هؤلاء الملأ ؟ الصّواب هو الكفر والصّراط المستقيم هو عبادة الأصنام . وليس وراء عمى بصيرة القوم وراء . ويحرص نوحٌ عليه السّلام على تصحيح خطأ القوم فى ألطف تعبير فإلى .

الآيـــة رقـــم (٦١)

قال تعالى : ﴿ قال يا قوم ليس بى ضلالةٌ ولكنّى رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ .

زعم المترفون الكافرون من قومِ نوحٍ عليه السّلام أنّه عليه السّلام فى ضلالٍ مبين. وقد عرفنا الضّلال بأنّه ترك الطّريق المستقيم ، كما عرفنا أنّ الملأ يزعمون أنّ ضلال نوحٍ عليه السّلام مبين وعن عمد وسابق إصرار . وردًّا على زعم الملأ لا ينفى نوحٌ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ضلّ » ٢٩٨ .

عليه السّلام عن نفسه مطلق الضّلال الّذى عرفنا أنّه قد يكون كثيرًا وقد يكون قليلاً ولكنّه ينفى عن نفسه أبسط صور الضّلال ، وهو المتمثّل فى الضّلالة ، وفى الوقت ذاته هو ينصّ على النّعمة الّتى أكرمه الله تعالى بها ، والأمانة الّتى حمّله الله تعالى إيّاها : ﴿ قال يا قوم ليس بى ضلالةٌ ولكنّى رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ والمعروف أنّ نعمة الرّسالة أكبر نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده ، تليها نعمة النّبوّة ، وهي الطّريق الوحيد المؤدّى إلى درجة الرّسالة أرفع الدّرجات . وينبغى أن يكون للفظ الرّبّ دورٌ فى لفت الانتباه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ، ومن هذه النّعم والآلاء إرسال نوحٍ عليه السّلام إلى قومه . وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يبلّغ الرّسالة ويؤدّى الأمانة ويكون لقومه النّاصح الأمين لإنقاذهم بإذن ربّ العالمين من الضّلال المبين على نحو ما بيّنت .

الآيــــة رقــم (٦٢)

قال تعالى: ﴿ أبلّغكم رسالات ربّى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾

تشير الآية الكريمة إلى ثلاثة أعمالٍ للمرسلين والنّبيّين وعلى أثرهم يسير الدّعاة إلى الله تعالى . وأوّل هذه الأعمال البلاغ . إنّ المرسلين والنّبيّين يبلّغون رسالات ربّهم جلّ وعلا وهي واحدةٌ فى اللّبّ والجوهر ، وإنّ الدّعاة إلى الله تعالى يدعون إلى سبيل ربّهم جلّ وعلا بالحكمة والموعظة الحسنة . أمّا العمل الثّانى فهو إخلاص النّصيحة وصدق الدّعوة . إنّ رسل الله تعالى يمثّلون قمّة النّصح وغاية الإخلاص لعباد الله تعالى الّذين يدعونهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة . وإنّ الدّعاة إلى الله تعالى يتّخذون من المرسلين والنّبيّين أسوةً حسنةً لهم فى تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة . أمّا العمل الثّالث أو المؤهّل الثّالث فهو العلم اللّدنّيّ الّذى يختصّ الله تعالى به المرسلين والنّبيّين ثمّ المتّقين من عباد الله تعالى الّذين يعلّمهم جلّ وعلا ما

يشاء . وبشأن الدّعاة إلى الله تعالى ثمّة عِلْمان وهبيّ وكسبيّ . أمّا الوهبيّ فثمرة تقوى الله تعالى وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ واتّقوا الله ويعلّمكم الله . والله بكلّ شيءٍ عليم﴾ وأمّا الكسبيّ فالمعروف أنّ دين الإسلام هو دين العلم ، وأنّ الدّعاة إلى الله تعالى والمعلّمين هم ورثة النّبيّين الّذين لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكنّهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر . إنّ العلم هو الكسب الحقيقيّ ، وإنّ الدّاعي إلى الله تعالى مطالبٌ بأن يكون فى مستوى المسئوليّة وأن يتسلّح بسلاح العلم من أجل دحض افتراءات أعداء الله تعالى ، والإجابة على التّساؤلات ، والدّعوة إلى سبيل الله تعالى على بصيرة . وليس بخافٍ أنّ الدّاعية ، وبخاصّةٍ فى هذا العصر ، بمنزلة الجنديّ فى جبهة القتال وعلى الثّغور . إنّ ذلك مرابطٌ بجسده لا يستطيع ضَرْبًا فى الأرض ، وإنّ هذا مرابطٌ بقلمه ولسانه وفكره ومشاعره وكلّ ما له حقّ التّصرّف فيه والقدرة عليه والملك له . وليس بخافٍ ضخامة مسئوليّة الرّأي ، فهو الأوّل ، ويليه شجاعة الشّجعان ، ومقارعة الأقران . وإذا كانت الآية الكريمة تتعلّق بنوحٍ عليه السّلام الدّاعي فإنّ الآية الكريمة التّالية تتعلّق بالمدعوّين فإلى .

الآيــة رقــم (٦٣)

قال تعالى : ﴿ أَوَ عجبتم أن جاءكم ذِكْرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم لينذركم ولتتقوا ولعلّكم تُرْحمون ﴾ .

فى أسلوب الاستفهام ينكر نوحٌ عليه السّلام على قومه تكذيبهم وعجبهم(٢) أن جاءهم ذكرٌ من ربّهم جلّ وعلا وموعظةٌ على لسان رجلٍ منهم هو نوحٌ عليه السّلام . ويلاحظ أننا بصدد ثلاثة أنواعٍ من المعانى : العَجَب . ومجيء الذّكر من

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .

(٢) انظر الجلالين ونظم الدّرر ٧ / ٤٣٠ والمعنى : أكذّبتم وعجبتم .

ا للهّٰ تعالى . وعلى شخصٍ بعينه . ويلاحظ أنّ هذه الأنواع الثّلاثة من المعـاني تذكّـر بالثّلاثة من المعاني في الآية الكريمة السّابقة البلاغ . النّصح . العلم . وتهيّـئ للثّلاثـة المعاني في حـقّ الّذيـن يدعوهـم نـوحٌ عليـه السّـلام : ﴿ لينذركـم ولتتّقـوا ولعلّكـم ترحمون ﴾ إنّ وظيفة الرّسول البلاغ بإنذار الكافرين وتبشـير المؤمنـين . وإنّ الهـدف من نصح الرّسول في البـلاغ أن يصـل المدعـوّون إلى مرتبـة التّقـوى ، وهـي الوجـه الآخر للإحسان كما بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف بأن تعبد الله كـأنّك تـراه فـإن لم تكن تراه فإنّه يراك . وإنّ الوصول إلى مرتبة التّقوى مظنّة استمطار رحمـة الله تعـالى القريب من المحسنين . وقد لاحظنا بشأن العلم اللّدنّيّ في حقّ الدّعـاة إلى الله تعـالى أنّه ثمرة تقوى الله تعـالى ، ونلاحـظ هنـا بشـأن المدعوّيـن أنّ رحمـة الله تعـالى هـي الأخرى ثمرة تقوى الله تعالى .

وممّا يلفت الانتباه بشأن الآية الكريمة مجيء جملة : ﴿ جاء ﴾ الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب وهي هنا تفيد المجيء الفعليّ لنوحٍ عليه السّلام ودعوتـه قومـه ، ومجيء لفظ الرّبّ الّذي يشيع جوّ الودّ والحنان ، ويهيّئ لمجيء الرّحمة من الرّحمن .

ولمّا كان قوم نوحٍ عليه السّلام لم يستفيدوا من الإنذار فضلاً عمّا وراءه فقد حقّ عليهم العذاب وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (٦٤)

قال تعالى : ﴿ فكذّبـوه فأنجينـاه والّذيـن معـه فـي الفلـك وأغرقنـا الّذيـن كذّبـوا بآياتنا، إنّهم كانوا قومًا عمين ﴾ .

أصرّ قوم نوحٍ عليه السّلام على تكذيبـه فأنجـاه الله سبحانه وتعـالى هـو والّذيـن آمنوا في السّفينة[1] الّتي أوحى الله تعالى إليه بصنعها وبكيفيّـة عملهـا مـن الخشـب

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٥١ .

حتّى إنّهم سخروا منه لأنه عليه السّلام نبيٌّ تارةً ونجّارٌ تارةً أخرى فى نظر المكذّبين الّذين أغرقهم الله تعالى بالطّوفان . إنّ المكذّبين بآيات الله تعالى من قوم نوحٍ عليه السّلام عمي البصائر والعياذ بالله . والمعروف أنّ عمى البصيرة أسوأ من عمى العين حينما يكون لأعمى العين بصيرةٌ نيّرة . وإذا كان لفظ الأعمى يطلق على أعمى العين فإنّ أعمى البصيرة يطلق عليه كلٌّ من لفظ الأعمى والعَمِي . جاء فى مفردات الرّاغب الأصفهانيّ(١) : « العَمَى يقال فى افتقاد البَصَر والبصيرة . ويقال فى الأوّل أعمى وفى الثّانى أَعْمَى وعَمٍ » إنّنا بصدد تكذيبٍ من الكافرين ، فإنجاءٍ للمؤمنين وإغراقٍ للكافرين ، وبصدد وصفٍ للمكذّبين بأنّ قلوبهم الّتى فى صدورهم قد عميت فهي لا تعرف نور الهداية ، ولا تتّجه إليه ، ولا تبحث عنه . وإذا جاءها انصرفت عنه وتساوى فى حقّها وجوده وعدمه .

ومن السّور الكريمات الّتى تحدّثت فى استفاضةٍ عن نوحٍ عليه السّلام ونجاته هو والمؤمنين وغرق الكافرين سورة هود(٢) ثمّ سورة المؤمنون . جاء فى سورة المؤمنون(٣) ـ مثلاً ـ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتّقون . فقال الملأ الّذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأوّلين . إن هو إلاّ رجلٌ به جنّةٌ فتربّصوا به حتّى حين . قال ربّ انصرنى بما كذّبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفُلْكَ بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التّنّور فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاّ مَنْ سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الّذين ظلموا إنّهم مُغْرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلْك فقل الحمدُ لله الّذى نجّانا من القوم الظّالمين . وقل ربّ أنزلنى مُنْزَلاً مباركًا وأنت خير المنزلين﴾ .

---

(١) « عمى » ٣٤٨ .
(٢) الآيات ٢٥ ـ ٤٨ .
(٣) الآيات ٢٣ ـ ٢٩ .

« ولما افتتحت القصّة بنسبتهم لـه إلى الضّـلال بـاطلاً ، وهـو ناشـئٌ عـن عمـى البصيرة أو البصر ، ناسب أن يقلب الأمـر عليهـم علـى وجـه الحـقّ ، فقـال مؤكّـدًا لإنكارهم ذلك . إنّهم كانوا ، أي لما فـي جبلّتهـم مـن العـوج ، قومـاً عمـين ، أي مطبوعين فى عمى القلب مع قوّتهم فيما يحاولونه ، ثابتٌ لهم ذلك . بمـا أشـار إليـه فَعِل دون أن يقال فاعل »[١] .

(١) نظم الدّرر ٧ / ٤٣٢ .

[٨]

« هـــودٌ عليــه السّــلام وقومـــه »

الآيــات (٦٥ ـ ٧٢)

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾

كما بعث الله تعالى نوحًا عليه السّلام إلى قومه بعث جلّ وعلا هودًا عليه السّلام أخا عادٍ إليهم . وعاد من ذرّيّة المؤمنين الّذين أنجاهم الله تعالى مع نوحٍ عليه السّلام فى السّفينة . وكما كان قول نوحٍ عليه السّلام لقومه لطيفاً كان قول هودٍ عليه السّلام لقومه لطيفًا ، فإنّ المصطَفيْن الأخيار من أنبياء الله تعالى ورسله يشتركون فى الخلق العظيم الّذى اصطفاهم الله تعالى به . وكما كان ردّ الملأ الّذين كفروا من قوم نوحٍ عليه السّلام عنيفًا كان ردّ الملأ من قوم هودٍ عليه السّلام . إنّ هودًا عليه السّلام ينفى عن نفسه اتّهام قومه له بأنّهم يرونه فى سفاهةٍ وأنّهم يرونه من الكاذبين . ويبيّن عليه السّلام الأعمال الثّلاثة أو المقوّمات الثّلاثة للرّسول وهى البلاغ والنّصح والأمانة . وسبق أن أشار نوحٌ عليه السّلام إلى العلم إضافةً إلى البلاغ والنّصح . وبذلك تكون مقوّمات الدّعوة أو أعمال الدّعاة البلاغ والنّصح والأمانة والعلم . فعلى الدّعاة إلى الله تعالى أن يأخذوا للأمر عدّته . ويكتفى هودٌ عليه السّلام بالإشارة إلى الإنذار هدفًا لدعوته فى حين ينصّ نوحٌ عليه السّلام على التّقوى وعلى رجاء الرّحمة من الله تعالى الّتى يستحقّها المحسنون . ويذكّر هودٌ قومه بنعم الله تعالى المحسوسة عليهم ومنها زيادتهم فى الخلق بسطة ، كما يذكّرهم بوجوب الشّكر لله تعالى بسبب آلائه عليهم . ويستنكر القوم دعوة هودٍ عليه السّلام لهم إلى توحيد الله تعالى وهجر الأصنام ويستهزئون بالعذاب الّذى يستعجلونه . ويحذّرهم هودٌ عليه السّلام من عذاب الله تعالى وغضبه عليهم لعبادتهم الأصنام ويخبرهم بأنّه هو والمؤمنين ينتظرون العذاب الّذى يستعجلونه . وينجّى الله تعالى هودًا والمؤمنين ويهلك الكافرين بالرّيح الباردة المستمرّة سبع ليالٍ وثمانية أيّام حسوماً .

الآيــة رقــم (٦٥)

قال تعالى : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتّقون ﴾ .

كما أرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السّلام إلى قومه أرسل هودًا عليه السّلام إلى قومه بالأحقاف . جاء فى سورة الأحقاف[1] قوله تعالى : ﴿ واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النّذر مِنْ بين يديه ومِنْ خلفه ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنّى أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ والأحقاف جمع الحِقْف ، بكسر الحاء ، أي الرّمل المائِل[2] فالأحقاف جبال الرّمل باليمن[3] بين عمان وحضرموت[4] فى جنوب الجزيرة العربيّة . ولأنّ عادًا قومُ هودٍ عليه السّلام جاء النّصّ على أنّه عليه السّلام أخوهم . وقد جاء فى حقّ عادٍ قوله تعالى فى سورة الفجر[5] : ﴿ ألم تر كيف فعل ربّك بعاد . إرَمَ ذاتِ العِماد . الّتى لم يُخلَقْ مِثْلُها فى البلاد ﴾ وقوله تعالى على لسان هودٍ عليه السّلام فى سورة الشّعراء[6] : ﴿ أتبنون بكلّ ريعٍ آيةً تعبثون . وتتّخذون مصانع لعلّكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبّارين . فاتّقوا الله وأطيعون . واتّقوا الّذى أمدكم بما تعلمون . أمدّكم بأنعامٍ وبنين . وجنّاتٍ وعيون . إنّى أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ وإنّ الكلام اللّطيف الّذى جرى على لسان نوحٍ عليه السّلام من الأدلّة على الخلق العظيم الّذى يصطفى الله تعالى به أنبياءه هو الكلام الّذى يجرى على لسان هودٍ عليه السّلام : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتّقون ﴾ إنّه عليه السّلام يناديهم بالقول : ﴿ يا قوم ﴾ ويدعوهم

---

(١) الآية ٢١ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حقف » ١٢٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٥ .
(٥) الآيات ٦ ــ ٨ .
(٦) الآيات ١٢٨ ــ ١٣٥ .

إلى عبادة الله تعالى الواحد القهّار وحده دون سواه ، ويحثّهم على الارتقاء إلى درجة التّقوى . ومعروفٌ أنّ التّقوى تبدأ باتّقاء النّار في مجال المعنويّات إلى أن تصل إلى درجةٍ رفيعةٍ هي الإحسان تقريباً . لننظر في المقابل إلى كلام القوم الكافرين الفظّ على نحو ما تبيّنه .

الآيـــة رقـــم (٦٦)

قال تعالى : ﴿ قال الملأ الّذين كفروا مِنْ قومه إنّا لنراك في سَفاهةٍ وإنّا لنظنّك من الكاذبين ﴾ .

بشأن الملأ من قوم نوحٍ عليه السّلام جاء مِنْ قَبْلُ القول على لسانهم : ﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلالٍ مبين ﴾ وبشأن الملأ من قوم هودٍ عليه السّلام يجيء النّصّ على كفرهم ممّا يعني اشتراك المترفين والكبراء من القومين في صفة الكفر . ويصرّح الملأ من قوم هودٍ عليه السّلام في أكثر من صيغةٍ للتّوكيد بأنّهم يرون هودًا عليه السّلام في سفاهةٍ ويجدونه في طيشٍ وخفّة عقلٍ وجهلٍ ، وبأنّهم يظنّونه عليه السّلام واحدًا من الكاذبين الّذين تبلغ بهم الجراءة إلى الحدّ الّذي يزعمون معه أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسلهم . إنّ هودًا عليه السّلام في نظر المترفين من قومه بالأحقاف ليس سوى واحدٍ من أولئك الكاذبين . وينفي عليه السّلام عن نفسه السّفاهة والكذب وذلك في .

الآيـــة رقـــم (٦٧)

قال تعالى : ﴿ قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ .

يكرّر هودٌ عليه السّلام نداءه اللّطيف لقومه : ﴿ قال يا قوم ﴾ وينفي عليه السّلام عن نفسه السّفاهة والطّيش وخفّة العقل : ﴿ ليس بي سفاهة ﴾ ومن البيّن

التّشابه بين هذا القول وبين القول على لسان نوحٍ عليه السّلام في الرّدّ على الملأ الّذين كفروا من قومه : ﴿ قال يا قوم ليس بى ضلالة ﴾ ويؤكّد عليه السّلام لقومه كما أكّد نوحٌ عليه السّلام لقومه من قبل بأنّه رسولٌ من ربّ العالمين : ﴿ ولكنّى رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى البرّ الرّحيم ربّ العالمين قد اصطفى هوداً عليه السّلام بنعمة الرّسالة ، كبرى نعمه جلّ وعلا على عبدٍ من عباده ، كما اصطفى نوحاً عليه السّلام أوّل رسول بعثه الله تعالى إلى الخلق . وكما بيّن نوحٌ عليه السّلام فى الآية الكريمة الثّانية والسّتّين أهمّ أعماله عليه السّلام أو مقوّماته وهي البلاغ والنّصح والعلم بيّن هودٌ عليه السّلام وذلك فى .

الآيـــة رقـــم (٦٨)

قال تعالى : ﴿ أبلّغكم رسالات ربّى وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾ .

ومن البيّن وجه الشّبه الكبير بين الآيتين الكريمتين ، فثمّة اتّفاقٌ بين الرّسولين الكريمين فى البلاغ ، وفى النّصح . وفى كلٍّ من الآيتين الكريمتين النّصّ على الرّسالات من ربّ العالمين لأنّ جوهر الرّسالات واحد ، ولأنها كلّها من ربّ العالمين . وإذا كان نوحٌ عليه السّلام قد نصّ بعد ذلك على العلم فإنّ هوداً عليه السّلام قد نصّ على الأمانة . وكأنّنا الآن بصدد أربعة أعمال أو مقوّمات لرسل الله تعالى ابتداءً ، وللدّعاة إلى الله تعالى تبعًا . ونستطيع بالجمع بين الآيتين الكريمتين أن نرتّب المقوّمات على النّحو التّالى . البلاغ . النّصح فى البلاغ . الأمانة . العلم .

وحينما نتبيّن أنّ مقوّمات الدّاعية إلى الله تعالى أربعة فى حين يكتفى فى حقّ أرفع المناصب الدّنيوية بمقوّماتٍ ثلاثةٍ أساسيّةٍ وهي الحفظ بمعنى القوّة ، والعلم ، والأمانة ، على نحو ما يتبيّن من هذه الآية الكريمة من سورة يوسف[1] قال تعالى :

---

(١) الآية ٥٥

﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم ﴾ ومن هذه الآية الكريمة من سورة القصص[1] قال تعالى : ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين ﴾ حينما نتبيّن ذلك ندرك أنّ المسئوليّة الملقاة على رجال الدّعوة أو رجال الدّين ، علماً بأنّه ليس في الإسلام فصلٌ حقيقيٌّ بين الدّين والدّنيا، على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمّيّة والخطورة ، لأنّ من أهمّ مقوّماتها الدّعوة إلى الله تعالى والعمل على رفع راية لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله عالية خفّاقةً حيث يبلغ اللّيل والنّهار . والله تعالى الموفّق الهادى إلى سبيل الرّشاد .

وكما أنكر نوحٌ عليه السّلام على الملأ من قومه عجبهم من إرسال الله تعالى رسولاً منهم أنكر هودٌ عليه السّلام فإلى .

الآيــة رقــم (٦٩)

قال تعالى : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم لينذركم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ وزادكم في الخلق بسطةً فاذكروا آلاء الله لعلّكم تفلحون ﴾ .

وجه الشّبه كبيرٌ بين القول هنا : ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم لينذركم ﴾ وبين هذه الآية الكريمة من القسم السّابق على لسان نوحٍ عليه السّلام : ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم لينذركم ولتتّقوا ولعلّكم تُرْحمون ﴾ وكأنّ هودًا عليه السّلام يريد هو الآخر من قومه الّذين استفادوا من إنذاره عليه السّلام لهم أن يتّقوا الله تعالى ما استطاعوا وأن يجتهدوا في سبيل الارتقاء إلى مرتبة الإحسان كي تشملهم رحمة الله تعالى القريب من المحسنين. إنّنا بشأن هودٍ عليه السّلام بصدد ما يمكن أن يسمّى في اصطلاح البلاغيّين

---

(١) الآيــة ٢٦ .

بالاكتفاء . إنّنا بصدد اكتفاءٍ بالإنذار لأنّ التّشابه الكامل بين الآيتين الكريمتين فى صدرهما دليلٌ على المحذوف من الكلام المعروف .

ولمّا كان قوم هودٍ عليه السّلام من ذرّيّة قوم نوحٍ عليه السّلام الّذين أنجاهم الله تعالى فى السّفينة ، وفى نجاة الآباء بإذن الله تعالى نجاةٌ للأبناء ، فإنّ الآية الكريمة تأمر القوم على لسان هودٍ عليه السّلام أن يذكروا ويشكروا ويعتبروا إذ جعلهم الله سبحانه وتعالى خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوحٍ عليه السّلام . ولا تزال السّفينة الّتى يركبها قوم هودٍ عليه السّلام وهم الّذين تطلّ أرضهم على البحر فى أكثر من جهة ، آيةً قائمةً على قدرة الله تعالى المطلقة وحجّةً بالغةً ، على البشريّة أن تقدرها حقّ قدرها . إنّ الله سبحانه وتعالى أراد للحياة بعد الطّوفان أن تستمرّ كما كانت قبله ولهذا سارت الأمور كلّها كما أراد لها العليم الخبير جلّ وعلا . وقد هلك بالطّوفان من أراد الله تعالى له الهلاك ونجا بالسّفينة من أراد الله تعالى له النّجاة ومن أراد الله تعالى له أن يولد من ذرّيّة أولئك النّاجين ، ومنهم قوم هودٍ عليه السّلام الّذين يؤمرون الآن بأن يذكروا تلك النّعم وأن يشكروا لله تعالى تلك الآلاء بتوحيده جلّ وعلا وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة .

وإنّ نعم الله تعالى على عادٍ قوم هودٍ عليه السّلام تجاوزت مجرّد إنجاء الآباء من الغرق إلى فضل الله تعالى عليهم على جهة الخصوص بأن زادهم جلّ وعلا فى الخلق بسطةً ، وطولاً وضخامة . إنّ الكافرين من قوم نوحٍ عليه السّلام قد اختفوا من الوجود بالغرق ، وإنّ من ذرّيّة المؤمنين بنوحٍ عليه السّلام من زاده الله تعالى على غيره من النّاس فى الجسد طولاً وضخامةً . إنّ كلاًّ من الأمرين قد حدث بإذن الله تعالى وأمره . اختفاءٌ فى حقّ الكافرين واحتفاءٌ فى حقّ المؤمنين . ومن الطّبيعيّ أن يكون واجب هؤلاء المؤمنين كبيرًا تجاه شكرهم لله تعالى نعمه وآلاءه . إنّ الشّكر هو ما أمر هودٌ عليه السّلام قومه أن يقوموا به لله تعالى لعلّهم يفلحون فى الأولى والآخرة بأن تتحقّق لهما الحياة الطّيّبة فى الحياتين ، ولا يكون ذلك إلاّ بالإيمان

وعمل الصّالحات فى الأولى كي يدخلوا جنّات النّعيم فى الآخرة . ويلاحظ تكرار الأمر بذكر نعم الله تعالى ، وقد مُهّد لذلك بالإشارة إلى الذّكر من ربّ عادٍ ربّ العالمين . إنّ عليهم أن يذكروا ويشكروا لا أن ينسوا ويكفروا . ومن البيّن أنّ الأمر بالذّكر فى المرّة الأولى تتعلّق به أمورٌ محسوسة من نجاةٍ وخلافةٍ وزيادةٍ فى الأجسام، وأنّ الأمر بالذّكر فى المرّة الثّانية تتعلّق به أمورٌ معنويّة من شكرٍ لله تعالى على تلك النّعم والآلاء وإيمانٍ وعمل صالحات . إنّ حصيلة كلّ ذلك الفلاح بإذن الله تعالى والنّجاح فى الأولى والآخرة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ وزادكم فى الخلق بسطةً فاذكروا آلاء الله لعلّكم تفلحون ﴾ .

وكما أصرّ قوم نوحٍ عليه السّلام على عبادة الأصنام أصرّ قوم هودٍ عليه السّلام ، ووراء ذلك يتّفق الملأ الّذين كفروا من عاد مع الملأ الّذين كفروا من أهل مكّة فى استعجال العذاب والاستهزاء به فإلى .

الآيــــة رقـــم (٧٠)

قال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تَعِدنا إن كنت من الصّادقين ﴾ .

إنّ الملأ الكافرين من قوم هودٍ عليه السّلام يسألونه عليه السّلام فى أسلوب الإنكار قائلين : أجئتنا يا هود ووصلت إلينا فى عُقْر دارنا من أجل أن تدعونا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونترك ما كان يعبد آباؤنا من أصنامٍ وأوثان . ونستذكر بهذه المناسبة تمام القول على لسان الملأ كما جاء فى هذه الآية الكريمة من سورة هودٍ عليه السّلام(١) : ﴿ إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إنّى أُشهدُ الله واشهدوا أنّى برىءٌ ممّا تشركون ﴾ .

---

(١) الآيـة ٥٣ .

وكما طلب كفّار مكّة من المصطفى ﷺ العذاب الأليم العاجل من الله تعالى دليلاً على صدقه عليه الصّلاة والسّلام فى ادّعائه أنّه رسول ربّ العالمين طلب الملأ من قوم هود عليه السّلام : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين ﴾ .

ويلاحظ أنّ الملأ يجىء على لسانهم جملة : ﴿ فأتنا ﴾ الّتى ترتبط بالبعد وليس جملة : « فجئنا » الّتى ترتبط بالقرب ممّا هو دليلٌ على استبعاد الملأ مجىء العذاب . إنّ القوم الحمقى السّفهاء يطلبون من هودٍ عليه السّلام أن يأتيهم بالعذاب . العاجل الّذى يستبعدونه من ناحيتهم والّذى ينذرهم به عليه السّلام من ناحيته . إنّهم بدلاً من أن يسألوا الله تعالى الهداية إلى الصّراط المستقيم والرّحمة الّتى وسعت كلّ شىءٍ إن كان هودٌ عليه السّلام رسول الله تعالى حقًّا وصدقًا هم يشترطون مجىء العذاب العاجل فى حقّهم دليلاً على صدق هودٍ عليه السّلام فى دعواه أنّه رسول ربّ العالمين . والمعروف أنّ كفّار مكّة كرّروا مع المصطفى ﷺ هذا الموقف الأحمق . وإلى هذا الموقف أشارت هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال[١] قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهمّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ . وبهذا تكون سورة الأعراف المكّيّة فى مثل هذه الآية الكريمة تسلّى المصطفى ﷺ وتثبّت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام . إنّ كلّ ما صادفه المصطفى ﷺ ويصادفه من الكفّار قد صادفه هذا الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم أو ذاك . وممّا صادفه وعانى منه المرسلون السّابقون سلاح السّخرية والاستهزاء الفتّاك .

وتجاه إصرار عادٍ على الكفر يؤكّد هودٌ عليه السّلام تهديده لهم بالعذاب الأليم إن لم يتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً فإلى .

---

(١) الآية ٣٢ .

الآيـــة رقـم (٧١)

قال تعالى : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربّكـم رجسٌ وغضـب . أتجادلونني فـي أسماءٍ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها مـن سلطانٍ فـانتظروا إنّـي معكـم مـن المنتظرين﴾ .

وممّا يلفت النّظر في الآية الكريمة القول : ﴿ من ربّكم ﴾ ممّـا هـو دليـلٌ علـى أنّ القوم قد أدّى بهم التّمادي في الباطل إلى جعل الرّبّ البرّ الرّحيم مربّي عباده بـالنّعم والآلاء يوقع على القوم وفوق رءوسهم الرّجس بمعنى العذاب والسّخط(١) والغضب بمعنى اللّعنة والطّرد من رحمة الله تعالى .

إنّ القوم قد استحقّوا سوء العذاب والإبعاد من رحمة الله تعالى لأنّهـم وقـد تبيّـن لهم زيف الأصنام الّتي يشركونها مع الله تعالى يصرّون على عبادتها ويجادلون هـودًا عليه السّلام فيها ويخاصمونه بسببها وكأنّهم يجهلون أنّ تلك الأصنام والأوثان أسماء لا مسمّياتٍ حقيقيّةٌ وراءها ، قد خلعوها هم وآباؤهم عليها ، ولم ينزّل الله سبحانه وتعالى بشيءٍ من ذلك حجّـةً أو سـلطانًا ، دليـلاً أو برهانـاً . ولا يملـك هـودٌ عليه السّلام سوى انتظار حكم الله تعالى في القـوم وحلـول العـذاب بهـم . وهـا هـو ذا عليـه السّـلام يـأمرهم بانتظـار العـذاب وحكـم الله تعـالى فيهـم فإنّـه عليـه السّـلام والمؤمنين منتظرون أن يفصل الله تعالى ويحكم بينهم وبين القوم الظّالمين .

والآية الكريمة التّالية تبيّن حكم الله تعالى بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين فإلى .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٥٧ .

الآيـــة رقـــم (٧٢)

قال تعالى : ﴿ فأنجيناه والّذين معه برحمةٍ منّا وقطَعنا دابر الّذين كذّبوا بآياتنا ومـا كانوا مؤمنين ﴾ .

تتجلّى رحمة الله تعالى وعظمته فى إنجاء الله تعالى هودًا عليه السّلام والّذين آمنوا معه وفى إهلاك الله تعالى القوم الكافرين وقطع دابر القوم الظّـالمين . ودابـر القـوم الّذى يدبرهم وهـو الّـذى يكـون فـى أدبـارهم وآخرهـم(١) والدّابـر يقـال للمتـأخّر وللتّابع(٢) وفى هلاك آخر القوم وتابعهم هلاكٌ ضمنيٌّ لقائدهم ومتقدّمهـم . إنّ الله سبحانه وتعالى أنجى جميع المؤمنين بفضله وأهلك جميع الكافرين بعدله .

وقد أهلك الله تعالى عادًا قوم هودٍ عليه السّلام ، الّذين لم يكونـوا مؤمنـين وقتـاً من الأوقات قبل حلول العذاب ، بـالرّيح العقيـم الّتـى سـخّرها الله تعـالى وسلّطها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّام متتابعاتٍ حاسماتٍ مهلكاتٍ لم تترك للكافرين من باقيـة. جاء فى سورة الذّاريات(٣) قوله تعالى : ﴿ وفى عادٍ إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم . ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلاّ جعلتـه كـالرّميم ﴾ وجـاء فـى سـورة الحاقّـة(٤) قولـه تعالى : ﴿ وأمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية . سخّرها عليهم سـبع ليـالٍ وثمانيـة أيّامٍ حسوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية . فهل تـرى لهـم مـن باقية ﴾ وكان ربّ العزّة قد ابتلى عادًا بالقحط وكانوا ينتظرون القطـر فأرسـل الله تعالى ريحاً تحمل سحابًا عرض فى أفق السّماء فظنّوه رحمةً وكان هو العـذاب الّـذى استعجلوه واستهزءوا به .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧ / ١٢٤ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « دبر » ١٦٤ .
(٣) الآية ٤١ ، ٤٢ . (٤) الآيات ٦ ـ ٨ .

وإلى هذه المعانى أشـارت الآيـات الكريمـات مـن سـورة الأحقـاف[1] قـال تعـالى :
﴿ واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النّذر من بين يديه ومن خلفه ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنّى أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين . قال إنّما العلم عند الله وأبلّغكم ما أُرْسِلْتُ به ولكنّى أراكم قوماً تجهلون . فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم . تدمّر كلّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرَى إلاّ مساكنهم . كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ .

(١) الآيات ٢١ ـ ٢٥ .

[٩]

« صالحٌ عليه السّلام وقومه »

الآيات (٧٣ ـ ٧٩)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾

بيّنت السّورة الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل أوّل رسله ، نوحًا عليه السّلام، إلى قومه ، ثمّ تحدّثت السّورة الكريمة عن هودٍ عليه السّلام الّذى يلى نوحًا عليه السّلام زمنًا ، ثمّ تحدّثت هنا عن صالحٍ عليه السّلام الّذى يلى هودًا عليه السّلام زمنًا . إنّ رسالة صالحٍ عليه السّلام إلى قومه هي رسالة نوحٍ وهودٍ وسائر النّبيّين والمرسلين ، عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه . إنّها الدّعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وبناءً على طلب ثمود يرسل الله تعالى آيةً بيّنةً على أنّ صالحاً عليه السّلام رسول ربّ العالمين . إنّها النّاقة الّتى أُمِرَ القوم بألاّ يمسّوها بسوءٍ فيأخذهم عذابٌ أليمٌ وقريب . ويذكّرهم صالحٌ عليه السّلام بنعم الله تعالى عليهم الكُثْر ، ومنها أن جعلهم خلفاء من بعد عاد ومكّن لهم فى الأرض يتّخذون من سهولها قصورًا يسكنونها صيفًا وينحتون الجبال بيوتاً يسكنونها شتاءً ، فعليهم فى المقابل أن يشكروا لله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وعليهم ألاّ يكفروا بالإفساد فى الأرض من الوجهتين الدّينيّة والدنيويّة . ولمّا كان القوم قد جمعوا إلى الكفر الاستكبار واحتقار الضّعفاء المؤمنين فقد سألوا المؤمنين : ﴿ أتعلمون أنّ صالحاً مرسلٌ من ربّه . قالوا إنّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون . قال الّذين استكبروا إنّا بالّذى آمنتم به كافرون ﴾ إنّهم لا يقولون : إنّا بما أرسل به كافرون . لأنّ مثل هذا القول فى نظر المستكبرين يرفع المؤمنين إلى مستواهم أو يحطّهم إلى مستوى المؤمنين فعليهم إذن أن يعلنوا كفرهم بما آمن به المؤمنون ، وأن يقتلوا النّاقة، وأن يتكبّروا ويتجبّروا ، وأن يستعجلوا العذاب ويستهزئوا به وبصالحٍ عليه السّلام . وتأخذ القوم الصّاعقة والزّلزلة بإذن الله تعالى ويصبحون فى دارهم جاثمين على الرّكب أمواتًا . ويعرض عنهم صالحٌ عليه السّلام قبل هلاكهم وبعده ويقول : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّى ونصحت لكم ولكن لا تحبّون النّاصحين ﴾ وما أقوى الانسجام وأشدّ التّناغم بين لفظ الرّبّ الّذى يشيع جوّ الودّ والنّصح وبين جوّ النّصح فى الآية الكريمة .

الآيـــة رقـــم (٧٣)

قال تعالى : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره . قد جاءتكم بيّنةٌ من ربّكم . هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليم ﴾ .

كما أرسل الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه السّلام إلى قومه وأرسل هودًا عليه السّلام إلى قومه أرسل صالحاً عليه السّلام إلى قومه قبيلة ثمود ولذلك قيل : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ والمعنى : وأرسل الله تعالى إلى ثمود أخاهم صالحاً عليه السّلام. وإذا كان نوحٌ عليه السّلام أوّل المرسلين . فإنّ هودًا وصالحًا عليهما السّلام يسبقان إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء زمناً[1] ومساكن ثمود مشهورة فيما بين الحجاز والشّام إلى وادى القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهبٌ إلى تبوك فى سنة تسع[2] وتُعْرَف تلك المساكن بمدائن صالح، والعُلاَ ، والحِجْر . وفى ديار ثمود جاء قول الحقّ سبحانه فى سورة الحِجْر[3]: ﴿ ولقد كذّب أصحاب الحِجْر المرسلين . وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصّيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

ويكرّر صالحٌ عليه السّلام القول الّذى يجرى على ألسنة الرّسل الكرام فى الدّعوة إلى الله تعالى : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ .

ولأجل التّعنّت يطلب الملأ الّذين كفروا من قومه آيةً دالّةً على قوله إنّه رسولٌ من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٧ وانظر تفسير الطبريّ ٨ / ١٥٧ .

(٣) الآيات ٨٠ ــ ٨٤ .

ربّ العالمين . وإلى هذا الطّلب أشار قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الشّعراء(١) : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسحَّرين . ما أنت إلاّ بَشَرٌ مثلُنا فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصّادقين . قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْب يومٍ معلوم . ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابُ يومٍ عظيم ﴾ فلهذه النّاقة نصيبها من الماء يومًا ولثمود نصيبهم من الماء يوماً . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأعراف تشير إلى هذه النّاقة . إنّها تقرّر أنّهم قد جاءتهم بيّنةٌ من ربّهم ووصلت إليهم فعلاً حجّةٌ بالغةٌ وآيةٌ واضحةٌ من ربّ العالمين : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ وإنّما قيل : ﴿ ناقة الله﴾ لأنّ القوم المتعنّتين طلبوا من صالحٍ عليه السّلام ناقةً تخرج من صخرةٍ عيّنوها فأخذ صالحٌ عليه السّلام منهم العهود والمواثيق بأن يؤمنوا إذا تحقّقت الآية ودعا ربّه جلّ وعلا الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه واستجاب الله تعالى دعاءه وخرجت النّاقة من الصّخرة الّتى عيّنوها وكانت حاملاً فيما يقال ووضعت فصيلها بين ظهرانَيْهِم(٢) والله أعلم .

ويطلب صالحٌ عليه السّلام من قومه أن يتركوا النّاقة وشأنها كي تأكل فى أرض الله تعالى . وفى اليوم الّذى تشرب النّاقة الماء يشربون جميعاً ما شاء الله تعالى من لبنها ، وفى اليوم الّذى يشربون الماء لا تأتيهم(٣) وكأنها تأكل فى ذلك اليوم .

وينهى صالحٌ عليه السّلام قومه عن مجرّد مسّ النّاقة بأدنى سوء ، وإلاّ أخذهم عذابٌ أليم . والمعروف أنّ الأخذ يرتبط به عادةً فى القرآن الكريم الشّدّة والعنف .

وما معنى عدم إيمان القوم بعد تحقّق الآية الّتى اقترحوا ؟ معناه أخذ الله تعالى لهم أخذ عزيزٍ مقتدر . هذه هي سنّة الله تعالى فى الأمم السّابقة على الأمّة المحمّديّة بأن يأخذها أخذ عزيزٍ مقتدرٍ حينما تصرّ على كفرها بعد تحقّق الآية الّتى اقترحت أو

---

(١) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٦ .

(٢) انظر هنا تفسير الطّبريّ ٨ / ١٥٨ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٨ .

(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٥٨ ..

الآيات . ولأنّ ربّ العزّة لم يشأ استئصال شأفة كفّار مكّة لم يشأ تحقيق اقتراحهم بشأن الآيات ، خاصّةً وأنّهم اقترحوا الآيات من باب التّعنّت وليس بسبب قصور الحجّة . في هذه المعانى جاء مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الحِجْر(١) : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذى نُزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذًا منظرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

ويواصل صالحٌ عليه السّلام دعوة قومه فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٤)

قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوّأكم في الأرض تتّخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ﴾ .

وجه الشّبه واضحٌ بين القول على لسان هودٍ عليه السّلام من قبل لقومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ ﴾ وبين القول هنا على لسان صالحٍ عليه السّلام لقومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ وليس بخافٍ الجناس غير التّام في القول : ﴿ من بعد عاد ﴾ .

ولّما كان ربّ العزّة قد مكّن لثمود في الأرض فهم يتّخذون القصور في السّهول ويسكنونها صيفاً ، وينحتون الجبال بيوتاً ويسكنونها شتاءً فإنّ صالحاً عليه السّلام يشير إلى هذه النّعمة وإلى التّمكين في الأرض وذلك باستخدام جملة ﴿ بوّأكم ﴾ وهي بمعنى أنزلكم(٢) ويسّر لكم وهيّأ ومكّن وأسكن . وأصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النّبوة الّذى هو منافاة الأجزاء . يقال : مكانٌ بواءٌ إذا لم يكن نابياً

---

(١) الآيات ٦ – ٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٣ .

بنازله ، وبوّأت له مكانًا سوّيته فتبوّأ(١) قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوّأكم فى الأرض تتّخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ .

ولمّا كان التّذكّر يراد به القيام بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه ومن مظاهر الشّكر الصّبر على النّعم وعن المعاصى فقد جاء على لسان صالحٍ عليه السّلام الأمر بالشّكر لله تعالى والنّهى عن كفران النّعم بارتكاب المعاصى : ﴿ فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾ ومن أهم مظاهر الشّكر لله تعالى توحيده جلّ وعلا وإفراده عزّ وجل بالعبادة ، ومن أهمّ مظاهر الكفر الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها بالنّبيّين فى المقام الأوّل . والدّليل على نهي صالحٍ عليه السّلام قومه عن الفساد من الوجهة الدّينيّة ابتداءً ، لأنّ صلاح الدّين معناه صلاح الدّنيا بإذن الله تعالى ، القول على لسان صالحٍ عليه السّلام : ﴿ ولا تعثوا ﴾ وليس : ولا تعيثوا . يقول الرّاغب(٢) : « العَيْث والعِثِيّ يتقاربان نحو جَذَب وجَبَذَ ، إلاّ أنّ العيث أكثر ما يقال فى الفساد الّذى يُدْرَكُ حِسًّا ، والعِثِيّ فيما يُدْرَكُ حُكْمًا . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا . وعلى هذا : ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين . وعثا يَعْثُوا عُثُوًّا » .

ولّما كان الكِبْر سمة الملأ الّذين كفروا فقد أشار السّياق إلى بعض مظاهر استكبار القوم فإلى .

الآيــة رقــم (٧٥)

قال تعالى : ﴿ قال الملأ الّذين استكبروا من قومه للّذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسَلٌ من ربّه . قالوا إنّا بما أُرسل به مؤمنون ﴾ .

شاء الله تعالى أن يكون المكذّبون للنّبيّين هم المترفين غالباً ، كما شاء الله تعالى أن يكون المؤمنون هم الفقراء المستضعفين غالبًا أيضًا . إنّ المستكبرين من المترفين

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بواء » ٦٩ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عثى » ٣٢٢ .

والكبراء ليسألون المؤمنين من المستضعفين بسبب الفقر غالبًا وما يترتّب على الفقر غالبًا من رثاثة حال وانشغال بال ، ويطرحون في استعلاءٍ على المؤمنين بصالحٍ عليه السّلام هذا السّؤال : ﴿ أتعلمون أنّ صالحًا مرسلٌ من ربّه ﴾ ويلاحظ استعمال ضمير المفرد الغائب في القول : ﴿ من ربّه ﴾ وكأنّ ربّ صالح عليه السّلام ليس ربّهم وربّ العالمين .

ويبادر المؤمنون إلى إعلان إيمانهم بما أرسل الله تعالى به صالحًا عليه السّلام : ﴿ قالوا إنّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون ﴾ وفي المقابل يبادر الكافرون إلى إعلان كفرهم وذلك في .

الآيـــة رقـــم (٧٦)

قال تعالى : ﴿ قال الّذين استكبروا إنّا بالّذي آمنتم به كافرون ﴾ .

إنّ الاستكبار في أعماق الملأ الّذين كفروا ، وإنّ القول الّذي يجري على ألسنتهم يمثّل قمّة الغرور واحتقار المؤمنين المستضعفين . إنّهم لا يقولون مثلاً : إنّا بما أرسل به كافرون ، وبذلك يكون الفلك الّذي يدور فيه الحديثان إيجابًا وسلبًا واحدًا ، إنّما الّذي يجيء على لسانهم هو التّعبير المباشر عن كفرهم بما آمن به المؤمنون . وبهذا التّعبير يُحوّل المستكبرون المستضعفين من المؤمنين خصومًا لهم بطريقةٍ مباشرةٍ وسافرة . إنّ المستكبرين لا فسحة لديهم للمستضعفين ، وإنّ الكافرين ليس لديهم سوى الاحتقار للمؤمنين . إنّ المؤمنين في نظر الكافرين أعداءٌ لهم وكفى . وإنّ الكافرين يعطون الدّليل إثر الدّليل على عداوتهم السّافرة للإيمان والمؤمنين فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٧)

قال تعالى : ﴿ فعقروا النّاقة وعتوا عن أمر ربّهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ .

أشارت الآية الكريمة إلى عقر ثمود النّاقة وإلى عتوّهم بمعنى تكبّرهم وتجبّرهم واستعلائهم عن الحقّ(١) وإلى استهزائهم بالعذاب ، وذلك على غرار استهزاء عادٍ وكفّار مكّة بالعذاب . ومن الآيات الكريمات الّتى أشارت إلى الأذى الّذى تعرّض له صالحٌ عليه السّلام والّذين معه من المؤمنين هذه الآيات الكريمات من سورة النّمل(٢) قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أنِ اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلّكم تُرْحمون . قالوا اطّيرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتَنون . وكان فى المدينة تسعة رهطٍ يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّه وأهله ثمّ لنقولنّ لوليّه ما شهدنا مَهْلِكَ أهله وإنّا لصادقون . ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتُهُمْ خاويةً بما ظلموا . إنّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يعلمون . وأنجينا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾ .

والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى الأعمال الثّلاثة الّتى يستحقّ القوم العذاب على كلٍّ منها . أمّا النّاقة الّتى عقروا وقتلوا فإنّها الآية الّتى طلبوها من صالحٍ عليه السّلام وتحقّقت ومع ذلك أصرّوا على كفرهم . وقد عبّرت الآية الكريمة عن إصرارهم على الكفر بالعتوّ والتّكبّر والتّجبّر . ثمّ إنّ القوم يستعجلون العذاب على جهة الاستهزاء والاستبعاد . والآية الكريمة التّالية تشير إلى عذاب القوم ووسيلته فإلى.

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٣ .   (٢) الآيات ٤٥ ـ ٥٣ .

الآيـــة رقـــم (٧٨)

قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ .

قرّرت الآية الكريمـة أنّ الملأ مـن قـوم صـالحٍ عليه السّلام قـد أخذتهـم الرّجفـة وأهلكتهم الزّلزلة الشّديدة من الأرض(١) الّتى زعزعتهم وحرّكتهم للهـلاك(٢) ويبـدو أنّ هذه الزّلزلة الشّديدة قد رافقتها الصّيحة الشّديدة الطّاغية الّتى تفوق كلّ صيحة . جاء فى سورة الحاقّة(٣) قوله تعـالى : ﴿ كذّبـت ثمود وعـادٌ بالقارعـة . فأمّـا ثمـود فأهلكوا بالطّاغيـة ﴾ وجـاء فـى سـورة القمـر(٤) قولـه تعـالى : ﴿ فنـادَوْا صـاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر . إنّا أرسلنا عليهـم صيحـةً واحـدةً فكـانوا كهشيم المحتظر ﴾ وتمثّلت تلك الصّيحة فى الصّاعقة الّتى أحرقتهم فى الوقـت الّـذى زلزل الله تعالى الأرض تحت أقدامهم والقصور والبيوت فـوق رءوسـهم . جـاء فـى سورة الذّاريات(٥) قوله تعالى : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين . فَعَتَوْا عـن أمر ربّهم فـأخذتهم الصّاعقـة وهـم ينظـرون . فمـا استطاعوا مـن قيـامٍ ومـا كـانوا منتصرين ﴾ .

وكانت نتيجة الرّجفة ، وليدة الصّاعقة والزّلزلة ، أن أصبـح الكـافرون مـن ثمـود فى دارهم جاثمين على الرّكب ميّتين(٦) صرعى لا يتحرّكون(٧) وقد نجّـى الله تعـالى صالحًا والمؤمنين فإلى .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٤
(٣) الآيـة ٤ ، ٥ .
(٤) الآيات ٢٩ ــ ٣١ .
(٥) الآيات ٤٣ ــ ٤٥ .
(٦) انظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٤ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٤.

الآيـــة رقـــم (٧٩)

قال تعالى : ﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّى ونصحـت لكـم ولكن لا تحبّون النّاصحين ﴾ .

بعد أن عقرت ثمود النّاقة أوعدهم صالحٌ عليه السّلام بوقوع العذاب بهم بعد ثلاثة أيّام . وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى فى سورة هود[1] : ﴿ فعقروها فقال تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيّامٍ ذلك وعدٌ غير مكذوب . فلمّا جاء أمرنا نجّينا صالحاً والّذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ومِنْ خزْيِ يومِئِذ . إنّ ربّك هو القويّ العزيز . وأخذ الّذين ظلموا الصّيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يَغْنَوْا فيها . ألا إنّ ثمود كفروا ربّهم . ألا بُعْدًا لثمود ﴾ وبعد أن أهلك الله تعالى ثمود تولّى عنهم هودٌ عليه السّلام وأعرض وخاطبهم كما خاطب المصطفى ﷺ هلكى غزوة بدرٍ من المشركين وقال لهم : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّى ودعوتكم إلى توحيد الله تعالى ونصحت لكم وأخلصت لكم النّصيحة وصدقتكم الدّعوة ولكن لا تحبّون النّاصحين وتكرهون المخلصين فى دعوتكم إلى الحقّ وإلى الصّراط المستقيم . ويصحّ أن يكون هذا القول قد جرى أيضاً على لسانه عليه الصّلاة والسّلام بعد أن أنذرهم بحلول العذاب وبعد أن أعرض عنهم وتركهم . وإنّ من أقوى الأدلّة على شفقة صالحٍ عليه السّلام وصدق نصحه لقومه القول على لسانه : ﴿ يا قوم ﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تشير إلى بعض صفات المرسلين ، تلك الصّفات الّتى ينبغى أن يتحلّى بها الدّعاة إلى الله تعالى . إنّها : خلقٌ عظيم . لسانٌ كريم . بلاغ مبين . نصحٌ أمين . ومن البين كذلك مجىء لفظة : ﴿ رسالة ﴾ فى صيغة المفرد ، فى حين جاءت

---

(١) الآيات ٦٥ ـ ٦٨ .

مرتين من قبل فى صيغة الجمع ، ﴿ رسالات ﴾ على لسان نوحٍ عليه السّلام فى الآية الكريمة الثّانية والسّتّين ، وعلى لسان هودٍ عليه السّلام فى الآية الكريمة الثّامنة والسّتّين . إنّ صيغة الجمع حينما تجىء تشير إلى الأشكال المتشابهة للرّسالات ، وإنّ صيغة المفرد حينما تجىء تشير إلى الجوهر الواحد لتلك الأشكال ، لأنّ مصدر الرّسالات كلّها واحد ، السّماء ، ولأنّ ربّ العزّة أرسل كلّ المرسلين والنّبيّين بدينٍ واحد هو دين الإسلام لله ربّ العالمين .

[١٠]

« لـــوطٌ عليــه السّــلام وقومـــه »

الآيــات (٨٠ ـ ٨٤)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

بعد حديث الآيات الكريمات عن رسل الله تعالى الثّلاثة في نسق نوحٍ وهودٍ وصالحٍ عليهم صلوات الله تعالى وسلامه ، وهم جميعًا يسبقون إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء ، يتحوّل السّياق إلى الحديث عن لوطٍ عليه السّلام وهو ابن أخي إبراهيم عليه السّلام . لقد أرسل الله تعالى لوطاً عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وإلى ترك إتيان الفاحشة الّتي لم يسبقهم إليها و لم ينحطّ بذاته لارتكابها أحدٌ من العالمين . إنّهم يأتون الرّجال والذّكران شهوةً من دون النّساء لأنّهم قومٌ مسرفون في تجاوز حدود الله تعالى. وعلى عادة المنحرفين الّذين يبغضون المستقيمين إن لم يجاروهم في انحرافهم وعلى عادة الطّغاة المتجبّرين يطلب بعض المنحرفين من بعضهم الآخر أن يخرجوا لوطًا عليه السّلام وأهله من المدينة لأنّهم أناسٌ يتطهّرون عن إتيان الفواحش . بل إنّ المسرفين ليزعمون أنّ البلد بلدهم فليس للمستقيمين المتطهّرين الحقّ في البقاء في المدينة . ويشاء الله تعالى أن ينجي المؤمنين المتطهّرين وأن يهلك المصرّين على إتيان الذّكران وعلى الكفر بأن قلب الله تعالى القرى بأهلها الكافرين المجرمين رأسًا على عقب وأمطرهم الله تعالى بحجارةٍ من طين هبطت عليهم من السّماء وبحجارةٍ أخرى صعدت معهم من الأرض وهبطت معهم مرّةً أخرى من السّماء . إنّ على أهل مكّة ومن لفّ لفّهم من المكذّبين أن يأخذوا العبرة من أمثال هذه الدّروس .

الآيـــة رقـــم (٨٠)

قال تعالى : ﴿ ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها مـن أحـدٍ مـن العالمين ﴾ .

أشارت السّورة الكريمة من ذى قبل إلى نوحٍ عليه السّلام أوّل رسـل الله تعـالى ، ثمّ إلى هودٍ عليه السّلام وقومه عاد الّذين خلفوا قوم نوحٍ عليه السّلام ، ثمّ إلى صالحٍ عليه السّلام وقومه ثمود الّذين خلفـوا عـادًا . وهـؤلاء جميعـاً يسبقون إبراهيـم عليـه السّلام أبا الأنبياء زمناً . ويتحوّل السّياق إلى لوطٍ عليه السّلام ابن أخى إبراهيم أبـى الأنبياء عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . وبذلك يكون السّـياق قـد رتّـب هـؤلاء المرسلين تأريخيًّا . ولوط هو ابـن هـارون بـن آزر . وهـو ابـن أخـى إبراهيـم الخليـل عليهما السّلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السّلام وهاجر معـه إلى أرض الشّـام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى[1] وذكر الميدانيّ فـى كتـاب الأمثـال أنّ سدوم هي سَرْمين بلدةٌ من أعمال حلب معروفـةٌ عـامرةٌ عندهـم[2] يقـول تعـالى ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا لوطًا ﴾ . ولو قيـل : معنـاه واذكـر لوطًـا يـا محمّـد إذ قـال لقومه ، إذ لم يكن فى الكلام صلة الرّسالة كما كـان فـى ذكـر عـادٍ وثمـود ، كـان مذهبًا[3] .

ولّما كان ربّ العزّة إنما يرسل رسله وأنبياءه من أجل دعـوة النّـاس إلى عبـادة الله تعالى وحده لا شريك له فكأنّ قوم لوطٍ عليه السّـلام قـد اصطلحـت عليهـم علّتـان اثنتان . الشّرك وإتيان الذّكران . وكأنّ أصل الكلام : ولقد أرسـلنا لوطـاً إلى قومـه

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٠ .

(٢) انظر معجم البلدان . يا قوت الحموى : « سدوم » .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٤ .

فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ، ويا قوم أتأتون الفاحشة . والله أعلم وكأنّ دعوة لوطٍ عليه السّلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له أمرٌ معروفٌ ومفروغٌ منه . وكأنّ انفراد قوم لوطٍ عليه السّلام بين العالمين من الإنس والجنّ بإتيان الذّكران واعتلاء الرّجال استحقّ لبشاعته وشناعته والتّحذير من الانحطاط إلى صغاره استحقّ أن يستأثر بالحديث ويستحوذ على الاهتمام . وها هوذا لوطٌ عليه السّلام يسأل قومه موبّخًا منكرًا محقّرًا : أتأتون الفاحشة ، فاحشة اللّواط الّتى ما سبقكم إليها ولوّث ذاته بها قبلكم من أحدٍ من عالمى الإنس والجنّ . والمعروف أنّ جملة : ﴿ أتى ﴾ لا تُسْتَعْمَلُ فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد . إنّ جملة : ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ تنكر على قوم لوطٍ عليه السّلام تعدّيهم كلّ حواجز الحدود والأخلاق والأعراف وارتكابهم ما يخالف الفطرة ويضادّ الطّبيعة . وفى الإمكان الاستئناس بالآيات الكريمات الّتى تستعمل هذه الجملة فى معرض الإنكار على من يأتون فاحشة الزّنى مثلاً كالآيتين الكريمتين الخامسة عشرة والسّادسة عشرة من سورة النّساء ، وكالّتى تستعمل هذه الجملة فى معرض التّنبيه إلى صعوبة الإتيان بالمطلوب، كالآية الكريمة الرّابعة من سورة النّور الّتى تشترط الإتيان بأربعة شهداء على جريمة الزّنى كي يثبت الحدّ وإلاّ لزم الجلد حدًّا للقذف بإتيان الزّنى . وإنّ من أقوى الأدلّة على دلالة ﴿ أتى ﴾ على البعد حينما يقترن معها فى نسق الجملة الأخرى صنوها : ﴿ جاء ﴾ الّتى تدلّ على القرب . وما أكثر الأدلّة على هذه المعجزة القرآنيّة والآية المطّردة .

ومعروفٌ أنّ الفاحشة وكذلك الفُحْش والفحشاء ما عَظُمَ قبحه من الأفعال والأقوال(١) .

وتنصّ الآية الكريمة على أن فاحشة اللّواط لم يسبق قومَ لوطٍ عليه السّلام أحدٌ إليها .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فحش » ٣٧٣ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : ما سبقكم إليها ، إنّما الّذى يجيء: ﴿ ما سبقكم بها ﴾ ممّا يصحّ أن يُفْهَمَ من استعمال حرف الباء بدلاً من إلى تضمين جملة سبق معنىً آخر ينبه إلى أنّ السّبق هنا سبقٌ معكوس ، فليس ثمّة سبق إلى معالى الأمور ، ولكنّ ثمّة سبقاً ، أعنى انحطاطًا ، إلى أحطّ الأمور وأدنى الدّرك ، وحينما يكون من معانى حرف الجرّ الباء المصاحبة فكأنّ المعنى ــ والله أعلم ــ ما لطّخ بها ولا لوّث نفسه بها من أحدٍ من العالمين . ومن البيّن إفادة حرف الجرّ : ﴿ مِنْ ﴾ للتّبعيض . فثمّة نفيٌ مطلقٌ لبعض الجزء أو لبعض الشّخص الواحد عن إتيان هذا الصّغار . فكيف تسمحون أيّها القوم أن ينغمس جميعكم فى هذه الرّذيلة وأنتم على علمٍ بأنّ هذه الفاحشة لم تخطر ببال أحدٍ من قبلكم .

وفى مقابل النّفي للبعض من الشّخص الواحد إتيان هذه الفاحشة ، يبدو أنّ قوم لوطٍ قد اشترك رجالهم ونساؤهم فى هذا الصّغار . إنّ الرّجال يأتون الرّجال والنّساء فى أدبارهم[١] وكما استغنى الرّجال بالرّجال استغنى النّساء بالنّساء[٢] .

ويواصل لوطٌ عليه السّلام توبيخ القوم المسرفين فإلى .

الآيــــة رقــــم (٨١)

قال تعالى : ﴿ إنّكم لتأتون الرّجال شهوةً من دون النّساء بل أنتم قومٌ مسرفون﴾.

لقد انحطّ الشّاذّون من قوم لوطٍ عليه السّلام إلى درك تأصّل الحصول على اللّذّة أو الشّهوة عن طريق اعتلاء الذّكران وإتيان الرّجال ، وعدم وجود الميل الفطريّ إلى الجنس الآخر أعنى النّساء . ومن البيّن إفادة ﴿ إنّ ﴾ واللاّم مِنْ : ﴿ لتأتون

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٢ / ١٦٥ . (٢) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٠ .

الرّجال﴾ معنى التّوكيد . هذا إلى مجيء جملة : ﴿ لتأتون ﴾ الّتي تبيّنا دلالتها على البعد ، وتنبيهها على وجوب الابتعاد عن هذا الصّغار الّذى يبذل المسرفون فى سبيل الحصول عليه كلّ مجهود ويركون كلّ شطط . وتنبيهًا على هذا الانحراف عن سواء السّبيل يجيء على لسان لوطٍ عليه السّلام هذا القول : ﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

وما دام الشّيء بالشيء يذكر كما يقولون فإنّ هذه مناسبةٌ طيّبةٌ للتّذكير بطاعون هذا العصر أعنى مرض نقص المناعة الّذى يعنى الموت الأكيد البطيء والّذى يعتبر إتيان عمل قوم لوطٍ عليه السّلام واعتلاء الذّكران والشّذوذ الجنسيّ من أهمّ أسبابه .

والعجيب فى أمر المسرفين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ والمنحرفين عن سواء السّبيل أنّهم يعتبرون المستقيمين الّذين يسيرون فى الصّراط المستقيم عدوًّا لهم فلا ينبغى أن يجمعهم معًا طريقٌ ولا مكان . وقد عبّرت الآية الكريمة التّالية عن هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٢)

قال تعالى : ﴿ وما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهّرون ﴾ .

روي عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنّه قال : ودّت الزّانية لو زنى النّساء كلّهنّ(١) وهل كان المسرفون من قوم لوط عليه السّلام يجهلون أنّهم مخطئون ؟ لا يجهلون . ولكنّ المنحرفين لا ينسجمون مطلقاً مع المستقيمين كيلا يكون للمستقيمين عليهم نوعٌ من الفضل أو الامتياز . وحينما تأكّد المسرفون أنّ المؤمنين لن يهجروا الطّريق المستقيم وفى المقابل هم مصرّون على إسرافهم وفجورهم لم يكن أمامهم من حلّ ، وهم الّذين يشعرون فى أعماقهم بالقوّة ، إلاّ أن يعملوا على

---

(١) انظر هنا مثلاً الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لابن تيمية ٤٦ .

إخراج المؤمنين مـن مدينتهـم . ومـا الذّنـب الّـذى ارتكبـه أولئـك المؤمنـون ؟ إنّهـم تطهّروا وتنزّهوا وتعفّفوا عن إتيان الذّكـران . إنّ المنطـق يقتضـى أن يُطْـرَدَ المجرمـون المسرفون الّذين يأتون فى ناديهم المنكر وأن يُخْرَجوا من القرية وليس العكس . وإنّ العمل المعكوس الّذى يأتيه المسـرفون جعـل عملهـم معكوسًـا ومنطقهـم منكوسـا . ويشاء الله تعالى أن ينجي لوطًا عليه السّلام والمؤمنين من أهله فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٣)

قال تعالى : ﴿ فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

أنجى الله سبحانه وتعالى لوطًا عليه السّلام وأهل بيته الطّيّبـين الطّاهرين باستثناء زوجته الّتى كانت متواطئةً مع قومها ضـدّ زوجهـا لـوطٍ عليـه السّـلام وقومـه ، إلى الحدّ الّذى يقال معه إنّها كانت تُغْرى قومها بضيـف لـوطٍ عليـه السّـلام كالملائكـة الّذين جاءوا فى هيئة شبّان حسنى الهيئة جميلى الشّكل .

وقد نصّت سورة الذّاريات على أنّ ثمّة بيتاً واحدًا من المسلمين أخرجه الله تعـالى من قرية لـوطٍ عليـه السّـلام هـو بيـت لـوطٍ عليـه السّـلام نفسـه . جـاء فـى سـورة الذّاريات(١) النّصّ على البيت الّذى أنجـاه الله تعـالى وبعـض جوانـب القصّـة . قـال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلـوا عليـه فقـالوا سـلاماً قال سلامٌ قومٌ منكرون . فراغ إلى أهلـه فجـاء بعجـلٍ سمـين . فقرّبـه إليهـم قـال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشروه بغلامٍ عليم . فأقبلت امرأته فـى صرّةٍ فصكّت وجهها وقالت عجوزٌ عقيم . قالوا كذلك قال ربّك إنّـه هـو الحكيـم العليم . قال فما خطبكم أيّها المرسلون . قالوا إنّا أُرْسِلْنا إلى قـومٍ مجرمـين . لنُرْسـل

---

(١) الآيات ٢٤ ــ ٣٧ .

عليهم حجارةً من طين . مسوَّمةً عند ربّك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيهـا مـن المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين . وتركنـا فيهـا آيـةً للّذيـن يخـافون العذاب الأليم ﴾ .

إنّ امرأة لوطٍ عليه السّلام كانت من الغابرين فى العذاب الباقين فيه(١) فى الدّنيـا بانقلاب القرية رأسًا على عقب وفى الآخرة بالنّار وبئس القـرار . جـاء فـى سـورة النّجم(٢) قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكةَ أهوى . فغشّاها ما غشّى ﴾ والمؤتفكة قرى قـوم لوطٍ عليه السّلام الّتـى ائتفكـت وانقلبـت رأسًـا علـى عقـب فغشّـاها وغطّاهـا مـن الحجارة ما شاء الله تعالى أن يغطّيهـا . وجـاء فـى سـورة التّحريـم(٣) قولـه تعـالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للّذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتا تحت عبدين من عبادنـا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخـلا النّـار مـع الدّاخلـين ﴾ وإلى طبيعة العذاب أشارت .

الآيــــة رقــــم (٨٤)

قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ .

كان المطر الّذى أنزله الله تعالى على قوم لوطٍ عبارةً عن الحجارة من طين ، الّتـى نزلت عليهم من السّماء ، والحجارة الّتى نزلـت عليهـم ومعهـم نتيجـةً للقـرى الّتـى رفعت إلى السّماء وقلبت رأسًا على عقب . ومن الآيات الكريمات الّتى نصّت علـى قلب القرى رأسًا على عقب وقصّت فى شىءٍ من تفصيلٍ بعض جوانب القصّة هـذه الآيات الكريمات من سورة هود(٤) قال تعالى : ﴿ ولمّا جاءت رسلنا لوطًا سىء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يومٌ عصيب . وجاءه قومه يُهْرَعون إليه ومِنْ قَبْـل كـانوا يعملون السّيّئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تخزون فـى ضيفى أليس منكم رجلٌ رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بنـاتك مـن حقٍّ وإنّـك

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٦٦ . (٢) الآية ٥٣ و٥٤ .

(٣) الآية ١٠ . (٤) الآيات ٧٧ ـ ٨٣ .

لتعلم ما نريد . قال لو أنّ لى بكم قوّةً أو آوى إلى ركنٍ شديد . قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بِقِطْعٍ من اللّيل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم . إنّ موعدهم الصّبح . أليس الصّبح بقريب . فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيلٍ منضود . مسوَّمةً عند ربّك وما هي من الظّالمين ببعيد ﴾ .

وقد وصفت الآية الكريمة المسرفين من قوم لوطٍ عليه السّلام بأنّهم مجرمون بسبب سوء الاعتقاد وسوء السّلوك . وإنّ الأمر بالنّظر فى القول : ﴿ فانظر ﴾ يراد به النّظر بعين العقل ونور القلب إلى حال قوم لوطٍ عليه السّلام ومآلهم . إنّ القوم استحقّوا أن يُقْذَف بهم من شاهق بسبب كفرهم وإتيان الذّكران .

وإنّ من ألطف ما يصحّ التّنبيه عليه وجه الشّبه الكبير بين الآيات الكريمات هنا وبين الآيات الكريمات ٥٤ ــ ٥٨ من سورة النّمل . هذا إلى كون عدد الآيات الكريمات فى الموضعين خمس آياتٍ كريمات . وإنّ من ألطف وسائل التّمييز بين الآيات الكريمات المتشابهات فى الموضعين مجىء الفاء فى القول من سورة الأعراف: ﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ فحرف الفاء فى لفظ الأعراف وفى القول : ﴿ مسرفون ﴾ ومجىء حرف اللاّم فى القول من سورة النّمل : ﴿ بل أنتم قومٌ تجهلون ﴾ فحرف اللاّم فى لفظ النّمل وفى القول : ﴿ تجهلون ﴾ .

والمعروف أنّ قوم لوطٍ طلبوا من لوطٍ عليه السّلام أن يأتيهم بعذاب الله تعالى على سبيل الاستبعاد للعذاب والاستهزاء به . جاء فى سورة العنكبوت[1] قوله تعالى: ﴿ ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها مِنْ أحدٍ من العالمين . أئنّكم لتأتون الرّجال وتقطعون السّبيل وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصّادقين . قال ربّ انصرنى على القوم المفسدين ﴾ .

---

(١) الآيات ٢٨ ــ ٣٠ .

[١١]

« شعيبٌ عليـه السّـلام وقومـه »

الآيـات (٨٥ ـ ٩٣)

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟
فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾
۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

بعد حديث السّورة فى تسلسلٍ زمنيٍّ عن نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السّلام تحدّثت عن شعيبٍ عليه السّلام وقومه الّذين لا يبتعدون زماناً ومكاناً عن لوطٍ عليه السّلام وقومه . إنّ الله تعالى أرسل شعيبًا عليه السّلام إلى قومه قبيلة مدين فى مدينة مدين بالقرب من معان ، ودعاهم مثل غيره من الرّسل إلى توحيد الله تعالى ونبّههم إلى الحجّة البالغة الّتى اصطفاه الله تعالى بها دليلاً على أنّه رسول ربّ العالمين . ولمّا كانت قبيلة مدين تطفّف المكيال والميزان وتقطع الطّريق ماديًّا بالإفساد فى الأرض ومعنويًّا بالكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى فقد أمرهم عليه السّلام بإيفاء المكيال والميزان ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاح الله تعالى لها بإرسال النّبيّين ، وعن ابتغاء الطّريق معوجّة والسّبيل ملتوية وذلك بالصّدّ عن سبيل الله تعالى وتهديد المؤمنين بالشّرور ، وعن كفران النّعم وإلاّ كان أخذ الله تعالى لهم شديداً كالمفسدين السّابقين . ويفرّ شعيبٌ عليه السّلام إلى أحكم الحاكمين الّذى سيفصل بين المؤمنين والكافرين . ويصرّ المستكبرون على طغيانهم ويهدّدون شعيبًا عليه السّلام والمؤمنين بإخراجهم من المدينة إن لم يرتدّوا إلى الكفر . وينكر شعيبٌ عليه السّلام الدّعوة إلى الكفر الّذى يكرهه المؤمنون فكيف بشعيبٍ عليه السّلام. ويفرّ إلى أحكم الحاكمين الّذى لا يكون إيمانٌ أو كفرٌ إلاّ بمشيئته ، والّذى أحاط علمه بكلّ شىء ، والّذى يتوكّل عليه المؤمنون لأنّه القادر على كلّ شىءٍ ومن ذلك الفصل بين المؤمنين والكافرين والحكم بينهم . ويدّعى الكافرون أنّ المؤمنين خاسرون فتأخذهم الزلزلة الشّديدة المميتة لهم أجمعين ويتأكّد أنّهم الخاسرون فى الأولى بالرّجفة وفى الآخرة بنار جهنّم . ويعرض عنهم شعيبٌ عليه السّلام وينفى حزنه لما حلّ بالكافرين بعد أن أبلغهم رسالة الله تعالى وأخلص لهم النّصيحة .

الآيــــة رقــــم (٨٥)

قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً . قال يا قوم اعبدو الله ما لكـم مـن إلـهٍ غيره . قد جاءتكم بيّنةٌ من ربّكم . فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

كما أرسل الله تعالى المرسلين فـى نسق ، نوحـاً وهـودًا وصالحًـا ولوطًـا عليهـم جميعًا صلوات الله وسلامه أرسل إثرهم إلى مديـن أخـاهم شـعيبًا عليـه السّـلام مـن القبيلة ذاتها . ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة . وهـي الّتـى بقـرب معـان مـن طريق الحجاز[1] وقد دعا عليه السّلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شـريك لـه أسوةً بسائر المرسلين والنّبيّين . وقد بيّن عليه السّلام لقومـه أنّهـم جـاءتهم ووصلـت إليهم فعلاً بيّنةٌ من ربّهم جلّ وعلا وحجّةٌ بالغةٌ مـن الله تعـالى الّـذى ربّـاهم بنعمـه وآلائه . ولمّا كـان أهـل مديـن قـد أضـافوا إلى الشّـرك أكـل أمـوال النّـاس بالبـاطل والإفساد فى الأرض من الوجهة الدّنيويّة إضافةً إلى الوجهة الدّينيّة فـإنّ شـعيبًا عليـه السّلام يدعو قومه إلى إيفاء الكيـل والمـيزان وينهـاهم عـن التّطفيـف حينمـا يكيلـون للنّـاس أو يزنـون لهـم . وقـد جـاء فـى سـورة المطفّفـين[2] قولــه تعــالى : ﴿ ويــلٌ للمطفّفـين. الّذيـن إذا اكتـالوا علـى النّـاس يسـتوفون . وإذا كـالوهم أو وزنوهـم يخسرون ﴾ والحقيقة أنّ تمادي أهل مدين فى التّطفيف وأكـل أمـوال النّـاس بالبـاطل جعل شعيبًا عليه السّلام يأمر قومه بإيفاء الكيـل والمـيزان وينهـاهم عـن بخس النّـاس حقوقهم وظلمهم وأكل أموالهم بالباطل فى مختلف المجالات وليس فـى مجـال الكيـل والميزان ، البيع والشّراء . وإذا كان النّهي عن بخس النّاس أشياءهم يشمل دائرة البيـع والشّراء وغيرها من مجالات المال فإنّ النّهى بعد ذلك عـن الإفسـاد فـى الأرض بعـد

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣١ وانظر نظم الدّرر ٧ / ٤٥٩ .
(٢) الآيات ١ ــ ٣ .

إصلاحها يشمل دائرة المال وكلّ الدّوائر الأخرى الّتى يصحّ أن يتسلّل إليها الفساد . بل إنّ الإفساد لا يقتصر على النّواحى المادّيّة المختلفة الصّور الّتى أشارت إليها الآيـة الكريمة إنّما يشمل كذلك النّواحـي المعنويّـة ، الدّينيّـة على جهـة الخصـوص . قـال تعالى: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تفسـدوا فـى الأرض بعد إصلاحها ﴾ .

إنّ ربّ العزّة يرسل المرسلين والنّبيّين من أجل إصلاح الأرض بعد إفسادها . وإنّ شعيبًا عليه السّـلام لينهى قومه عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها بـالنّبيّين والمرسلين من ناحية ، وبالدّعاة إلى الله تعالى من ناحيةٍ أخرى .

ويبيّن شعيبٌ عليه السّلام لقومه أنّ عدم الطّغيان فى الكيل والميزان وإنصاف الآخرين فى كلّ المعاملات وعدم الإفساد فى الأرض بل الإصلاح فيها خيرٌ لهم فى الدّنيا والآخرة إن كانوا مؤمنين با لله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبشعيبٍ عليه السّلام رسولا .

وإنّ الآية الكريمة لتذكّرنا بهذه الآيات الكريمات المفصّلة لمعانى الآية الكريمة وهي من سورة هود(١) قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره . ولا تنقصـوا المكيـال والميزان إنّى أراكم بخيرٍ وإنّى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسـوا النّـاس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيّة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ . ويلاحظ بشأن آيات سورة هود النّهي عـن التّطفيف والأمر بالوفاء ، ومجيء لفظة القسط بمعنى العدل فى القول : ﴿ أوفوا المكيـال والميزان بالقسط ﴾ كما يلاحظ أنّها تفصّل بعض معانى الخير فى آية سورة الأعراف وذلك بالنّصّ على أنّ ما يُبقى الله تعالى من ربحٍ حلال بعد إيفاء المكيال والميزان بالقسط خيرٌ لهم فى الدّنيا بسبب البركة ، وفى الآخرة بسبب الثّواب . وتشير الآيـة الكريمة التّالية إلى بعض مظاهر الإفساد فى الأرض فإلى .

---

(١) الآيات ٨٤ - ٨٦ .

الآيـــة رقـــم (٨٦)

قال تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكلّ صِراطٍ توعدون وتصدّون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عِوَجًا . واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

من أهمّ ما يلاحظ على جملة قعد أنّ عبقريّة اللّغة العربيّة تجعلها قادرةً على تعيينها لاتّجاه القاعد من أعلى إلى أسفل إضافةً إلى تصوير هيئة القعود ، وهي ذاتها هيئة الجلوس ، ولكنّ جملة جلس تفيد الاتّجاه المعاكس ، أيْ من أسفل إلى أعلى . ومِنْ هنا يقال : كان قائماً فقعد ، وكان مضطجعًا فجلس ، ومن هنا تفيد جملة النّهي : ﴿ ولا تقعدوا بكلّ صراطٍ ﴾ تصميم القاعدين على تحقيق الغرض ، وهو هنا التّربّص مع التّعمّد وسبق الإصرار .

إنّ أهل مدين باختصار قطّاع طرق مادّيّة ومعنويّة . إنّهم بشأن قطع الطّرق مادّيًّا يأكلون أموال النّاس بالباطل ويحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا . وإنّهم بشأن قطع الطّرق معنويًّا يصدّون عن سبيل الله تعالى ، ويوعدون ، من آمن بالله تعالى وبرسوله شعيبٍ عليه السّلام ، بالشّرور ، وبالويل والثّبور وعظائم الأمور، ويهدّدون كلّ من همّ بالإيمان والاستقامة بكلّ أنواع الشّرور والبلاء . وقبل ذلك وبعد ذلك هم حريصون على أن تكون الطّريق معوجّة والسّبيل ملتوية . ونستطيع أن نفهم من جملة : ﴿ وتبغونها عوجًا ﴾ علاقة الجملة بالبغي والعدوان ، والعتوّ والاستكبار ، وإثارة الشّكوك والشّبهات(١) .

إنّ الكافرين من قوم شعيبٍ عليه السّلام بادلوا إحسان الله تعالى إليهم بالكفران.

---

(١) انظر مثلاً نظم الدّرر ٧ / ٤٦٢ .

إنّهم كانوا قليلاً فكثّرهم الله تعالى . ومن المعروف أنّ الكثرة فى العدد تعنى الكـثرة فى العُدّة والقوّة والسّلطان . إنّهم بدلاً مـن أن يشـكروا لله تعـالى نعمـه وآلاءه هـم يكفرون ، وبدلاً مـن أن يصلحـوا فـى الأرض هـم يفسـدون ، بـل إنّهـم لينـاصبون رسول الله تعالى إليهم العداء . وبذلك هـم يقفـون حجـر عـثرة فـى سـبيل صـلاح الأرض من الوجهتين الدّينيّة والدّنيويّة .

والعجيب فى هؤلاء الكفّار أنّ عمى البصيرة قـد تمكّـن منهـم إلى الحـدّ الّـذى لا يتّعظون معه بما حلّ بالمكذّبين السّابقين أمثالهم . وقد جاء فى هذا المعنى على لسـان شعيبٍ عليه السّلام فى سورة هود[1] قوله تعالى : ﴿ ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقى أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صـالح . ومـا قـوم لـوطٍ منكـم ببعيد ﴾ وجاء هنا القول : ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

ولّما كان القوم الكافرون قد ناصبوا القوم المؤمنين العداء فإنّ شـعيباً عليـه السّـلام يفرّ إلى أحكم الحاكمين فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٧)

قال تعالى : ﴿ وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالّذى أرسلت بـه وطائفـةٌ لم يؤمنـوا فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ .

فى الإمكان أن ينظر إلى الآية الكريمـة فـى ضـوء قولـه عـزّ مـن قـائل فـى سـورة سبأ[2]: ﴿ وإنّا أو إيّاكم لعلى هدًى أو فى ضلالٍ مبين ﴾ . وقوله تعالى[3] : ﴿ إنّـا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقـوم الأشـهاد ﴾ وقولـه تعـالى[4] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنـا لعبادنـا المرسـلين . إنّهـم لهـم المنصـورون . وإنّ جندنـا لهـم الغالبون ﴾ .

---

(١) الآيــة ٨٩ .
(٢) الآية ٢٤ .
(٣) سورة غافر ٥١ .
(٤) سورة الصّافّات ١٧١ ـ ١٧٣ .

إنّ شعيبًا عليه السّلام يعلن استسلامه المطلق لمشيئة الله تعالى وثقته الكاملة فى وعد الله تعالى الحقّ . إنه يخاطب المؤمنين من أتباعه وغير المؤمنين قائلاً : إن كان طائفةٌ منكم وجماعةٌ آمنوا بالّذى أرسلني الله تعالى به من دعوةٍ إلى توحيد الله تعالى وإلى الإصلاح وطائفةٌ أخرى وجماعةٌ لم يؤمنوا فاصبروا أيّها الفريقان[1] حتّى يحكم الله سبحانه وتعالى بيننا نحن المؤمنين وبينكم أيّها الكافرون وحتّى يقضي الله تعالى بيننا ويفصل بالحقّ وهو جلّ وعلا خير الحاكمين وأحكم الفاصلين .

ويصرّ الكافرون على استكبارهم ويتمادون فى طغيانهم فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٨)

قال تعالى : ﴿ قال الملأ الّذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والّذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ فى ملّتنا . قال أو لو كنّا كارهين ﴾ .

لا يزال أشراف القوم ومترفوهم مصرّين على الكفر والاستكبار والتّمادى فى التّعالى إلى الحدّ الّذى يقسمون معه ويحلفون بأنّهم سيخرجون شعيبًا عليه السّلام والمؤمنين معه من المدينة الّتى يراها المستكبرون حقًّا خالصًا لهم . إنّ المشركين وحدهم هم الّذين يستحقون البقاء فى المدينة فعلى شعيبٍ عليه السّلام والمؤمنين معه أن يختاروا بين البقاء فى المدينة مع الكفر أو الخروج منها مع الإيمان . ويلاحظ اتّفاق الكافرين من قوم لوطٍ وشعيبٍ عليهما السّلام على إخراج المؤمنين من مدينتهم بغيًا وعدواناً .

ولمّا كان القوم يريدون أن يخرجوا شعيبًا عليه السّلام والمؤمنين جميعًا بسبب الإيمان فإنّهم يجمعون بين شعيبٍ عليه السّلام والمؤمنين جميعًا فى القول : ﴿ أو لتعودنّ فى ملّتنا ﴾ من باب التّغليب ، فإنّ شعيبًا عليه السّلام النّبيّ المعصوم لم يكن وقتًا من الأوقات فى ملّتهم كي يعود إليها .

---

(١) نظم الدّرر ٧ / ٤٦٣ .

ويردّ شعيبٌ عليه السّلام فى إنكارٍ على قومه ، بلسان المقـال فـى حقّـه وبلسـان الحال فى حقّ قومه : ﴿ أو لو كنّا كارهين ﴾ والمعنى : أنعود فى ملّتكـم ولـو كنّـا كارهين ومبغضين لها ؟ ولمّا كان الكره للشّرك والحبّ للإيمان بفضل الله تعـالى فـإنّ الآية الكريمة التّالية على لسان شعيبٍ عليه السّلام تتحدّث فى هـذا الفضـل مـن الله تعالى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٩)

قال تعالى : ﴿ قد افترينا علـى الله كذبـاً إن عدنـا فـى ملّتكـم بعـد إذ نجّانـا الله منها. وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربّنا . وسع ربّنا كلّ شيءٍ علماً . على الله توكّلنا . ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين ﴾ .

إنّ شعيبًا عليه السّلام والمؤمنين يعلنون على رءوس الأشهاد بأنّ نجـاتهم مـن ملّـة الملأ الّذين كفروا وهي الشّرك إنّما كـان بـإذن الله تعـالى وفضلـه جـلّ وعـلا الّـذى هداهم إلى دين الإسلام ربّ العالمين . وما معنى العودة إلى الشّرك ـ لا سمح الله ـ؟ معناها العودة إلى الهلاك بعد أن نجّاهم الله تعالى منه ، ومعناها افـتراء الكـذب علـى الله تعالى ، لأنّ التّحوّل فى العادة إنّما يكون من الباطل إلى الحـقّ وليـس العكـس . وحينما يكون ثمّة تحوّلٌ من الحقّ أي التّوحيـد ، إلى البـاطل أي الشّـرك ، يكـون ثمّـة افتراءٌ للكـذب علـى الله تعـالى ، لأنّ الله تعـالى أرانـا الحقّ حقًّـا والبـاطل بـاطلاً ، وبالارتداد عن الإسلام يكون قلبٌ للمقاييس والموازين فيصـير الحـقّ بـاطلاً والبـاطل حقًّا .

وإنّ الارتداد عن الإسلام ـ لاسمح الله ـ إلى الكفر لو افترضنا أنّه تمّ ـــ وهـو مـا يبغضه المؤمنون كبغضهم أن يقذف بهم فى النّار ، إنّما يتمّ بإرادة الله تعـالى وليـس